مدخل حول الحياة العامة في الجزائر- البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية

تمهيد:

تميّزت الأمة الجزائرية منذ سنة 1830 بتمسّكها بكيانها الراسخ وتشبثها بأرضها عبر مراحل تاريخية متباينة، وكل هذا انعكس بصورة واضحة على تراثها الأدبي، فرغم جهود المستعمر ومحاولاته الدائمة من أجل القضاء على أيّ أثر للهوية الثقافية الجزائرية استطاعت الأقلام المبدعة في محتلف المجالات الفنية أن تنهض بفكرها المؤثر للتعبَير عن المعاناة والانتهاكات اللتي يمارسها المستعمر في حق البشرية، لذا لاينبغي أن ننطلق في دراستنا للأدب الجزائري من أقرب فترة أي فترة النهضة العربية الحديثة إنّما من عصور غابرة حيث رافق ما تمخّض عنه التاريخ من إيجابيات وسلبيات عديدة، لذا نعتبر المرجعيات السياسية والثقافية والاجتماعية للأدب الجزائري ركيزة أساسية لا يمكن تجاهلها حتى وإن زهد الباحثون في الاهتمام بها.

1. البيئة السياسية :

- تم احتلال الجزائر في 05 جويلية 1830 في عهد الملك الفرنسي شارل العاشر بذريعة الدفاع عن شرف الملك والدين المسيحي بسبب حادثة المروحة أي معاقبة داي الجزائر الذي ضرب قنصل فرنسا بيير ديغال ورفضه الاعتذار.
- عندما حاولت التوغل داخل الجزائر لاقتها مقاومة عنيفة من طرف الأهالي حيث تصدى لها الفلاحون إما لوحدهم أو تحت قيادة شخصية ذات مكانة عندهم: الأمير عبد القادر، الشيخ المقراني، الشيخ الحداد، بوعمامة، بومزراق، بوبغلة، لالة فاطمة نسومر...
- الموقف القتالي العنيف للفلاحين كان ناتجا عن تعلقهم الشديد بالأرض، فهي تضمن له أسباب عيشه، وتشكل عامل وحدة في مجتمع قائم على النظام القبلي.
- على الرغم من المقاومة العنيفة إلا أن المناطق كانت تسقط الواحدة تلو الأخرى في أيدي الاستعمار الفرنسي .
- جعلت الأراضي الصالحة للزراعة مستوطنات للمعمرين في حين طرد السكان الأصليون إلى المناطق الجرداء .
- جلبت من فرنسا البطالين والعائلات الفقيرة وملّكتهم الأراضي .

- قام المعمرون باقتناء الأسلحة فطردوا الأهالي الذين كانوا يسكنون بجوار مزارعهم، ووسّعوا بذلك من أراضيهم .
- في عام 1868 حدثت مجاعة بالجزائر ذهب ضحيتها أكثر من 500 ألف نسمة . وهذا ما ولّد ثورة 1871 (ثورة المقراني) التي فشلت وصودرت بعدها أغلب الأراضي المتبقية .
- تمكّنت الإدارة الفرنسية من السيطرة على الأوضاع عن طريق القوة وذلك بالتفريق بين القبائل والعشائر بتعزيز مواقعها في الدواوير والقرى، ومراقبتهم عن طريق بعض الإخوة في الدين (القيّاد).
- إستمر الوضع على حاله إلى غاية 1921 حيث أنشأ الأمير خالد حزبه: كتلة الجزائريين المنتخبين ثم ظهرت أحزاب أخرى: نجم شمال إفريقيا1926، الذي تحول بعد حلّه إلى حزب الشعب ثم إلى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. و تزعمه مصالي الحاج، وظهر حزب البيان الذي تزعمه فرحات عباس .
- بعد الحرب العالمية الثانية كان المجتمع الجزائري يأمل في الاستقلال خصوصا بعد مساعدته لفرنسا على التخلص من النازية . فحدثت مجازر 08 ماي 1945 في كل من سطيف قالمة وخراطة واستشهد فيها آلاف المواطنين .
- في 1947 أنشأت المنظمة الخاصة للتحضير للثورة وذلك بجمع وشراء الأسلحة وتخبيئها، وتجنيد المناضلين وتدريبهم على استعمال السلاح ووضع القنابل . لكنه اكتشف أمرها واعتقل العديد من قادتها ومناضليها .
- لكنهم في الأخير تمكنوا من إشعال الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954 حيث استمرت 7 سنوات ونصف استشهد فيه أكثر من مليون شهيد واستعيدت الحرية في 05 من جويلية 1962 .

2. <u>البيئة الاجتماعية والثقافية :</u>

- انعكست آثار السياسة الاستعمارية في الجزائر سلبا على الأهالي الذين فقدوا مع حريتهم كل عوامل الرخاء والسعادة .
- كانت الجزائر قبل الاحتلال زراعية بالدرجة الأولى أي أن شعبها يعيش مما تقدمه له تلك الأرض، لكن وبعد مصادرة أراضيهم عانى المجتمع من الجوع والتشريد والمجاعات.
- ابتدأت بفرنسا سياسة التنصير لتفكيك المجتمع وتغيير نظرته نحو الأرض والدين والجوانب الأخرى التي تراها ضرورية لتمتين استقرارها بالجزائر حيث زرعت رجال الدين المسيحيين في مختلف أرجاء البلاد قصد استمالة المواطنين إليهم، لمحاولة محو شعورهم الديني والأخلاقي، وزرع أفكارهم الجديدة تحت غطاء التحضر .

- أدّت هذه السياسة إلى تخوّف الكثير من الآباء على مستقبل أبنائهم، بحيث أنهم ربطوا بين التعليم الفرنسي وسياسة التنصير، فانحصر التعليم عندهم في الزوايا بتعلم اللغة العربية وأمور الدين الإسلامي بحفظ القرآن الحديث .
- في عام 1887 لم تخصص فرنسا سوى 79 مدرسة عمومية مخصصة للسكان الأصليين يتردد عليها 8963 تلميذا من أصل 500 ألف من الأطفال البالغين السن المدرسي .
- اللغة العربية لم تكن محرّمة من طرف السلطات الفرنسية لكنها أوكلت أمر تعليمها للجمعيات والزوايا المتواجدة في الأرياف . والكتاتيب المرتبطة بالمساجد في القرى والمداشر، وبعض المدارس المتواجدة في المدن .
- لم تلعب اللغة العربية دورها في نشر العلم والثقافة بسبب الطرق التقليدية في التعليم إذ انحصر تعلمها على الحفاظ على الدين واللغة من الضياع . فانغلقت على نفسها، ومن نتائج هذا الانغلاق ظهور الطرقية وانتشار الأفكار الخرافية التي ساهمت السلطة الفرنسية في مد يد العون لها كالشعوذة والغيب وسيطرة الأرواح وتحكم الجن. وفي المقابل تمكنت اللغة الفرنسية من فرض سيطرتها على مختلف الهياكل الإدارية والسياسية في الجزائر .
- كان للجمعيات والنوادي الفضل في نشر الوعي والثقافة بين صفوف الجزائريين حيث ظهرت جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 متأثرة بالتيار الإصلاحي السائد في المشرق تحت زعامة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .
- حاولت الجمعية القضاء على التخلف والأمية الفكرية السائدة في أوساط الشعب وذلك بالقضاء على أهم مبدأ كان شيوخ الطرقية ينادون به ألا وهو مبدأ التواكل، أي أن كل شيء قضاء وقدر وليس بوسع أي شخص أن يغير منه، فالرزق لا يأتي بالعمل وإنما يأتي من حيث لا ينتظره الشخص لأنه نصيب محتوم .
- من العراقيل التي واجهت الجمعية السياسة الاستعمارية التي ضيقت ميدان عملها وعرقلت العديد من مشاريعها الإصلاحية، إلى جانب الجهل الذي سيطر على أغلبية الشعب بسبب عدم التعلم، بالإضافة إلى رجال الدين أصحاب الطرقية الذين كانوا يجعلون أنفسهم أسيادا على بقية الشعب وبمساعدة من طرف السلطات الفرنسية
- من عوامل النشاط الفكري نجد ظهور الصحف الوطنية التي حاولت بث الوعي الوطني والثقافي بين صفوف الجزائريين ومن بين الصحف نجد :
- المغرب: ظهرت في جنيف عام 1903 وأصدرتها لجنة استقلال الجزائر وتونس
- الجزائر: أصدرها الفنان عمر راسم عام 1908

- المنتقد: أصدرها الشيخ ابن باديس عام 1921
- الأمة: أصدرها حزب نجم شمال إفريقيا سنة 1930
- البصائر: أسسها ابن باديس والبشير الإبراهيمي 1935
- المساواة أسسها حزب أحباب البيان والحرية سنة 1944
- الشعب الجزائري: أسستها حركة الانتصار للحريات الديمقراطية سنة 1954
- ساهمت هذه الصحف بشكل أو بآخر في نشر الوعي الثقافي والسياسي بين أفراد الشعب محاولين إظهار الحقيقة وأسباب المشاكل التي يتخبطون فيها، وقد لاقت أغلب هذه الصحف مصير التوقيف من طرف سلطات الاحتلال لما تشكله من خطر على سياستها الاستعمارية والتجهيلية للشعب الجزائري .
- على الرغم من الفقر الشديد الذي كان يعاني منه المواطنون إلا أن البعض منهم فضل إرسال أبنائهم للتعلم في المدارس الفرنسية الأمر الذي ساهم في ظهور نخبة من الشعب تتحدث الفرنسية بطلاقة، والتي رأت أنها مقهورة بمقابل الطرف الآخر المتمثل في المستوطنين الفرنسيين فحاولت الدفاع عن السكان الأصليين سواء بالتكتل داخل أحزاب سياسية أو بكتابة مقالات صحفية أو حتى في تعليم أبناء وطنهم كمحاولة لمحو الجهل والأمية السائدة .